

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ
اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٧﴾

ومن الناس - اللقاء الثالث - نموذج إنسان باع نفسه لله

المحاضرات

محاضرة في الأردن

2022-06-26

عمان

الأردن

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، في هذه اللقاءات الطيبة نتحدث عن نماذج قرآنية، تحدثنا في اللقاء السابق عن نموذج المفسدين:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ
﴿٢٧﴾

(سورة البقرة)

في اللقاء الذي قبله تحدثنا عن نموذج المنافقين:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8)

(سورة البقرة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ
يُرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ لِقْوَةَ اللَّهِ لَئِيمَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ سَدِيدٌ الْعَذَابِ (165)

(سورة البقرة)

تفسير العلماء لقوله تعالى (كَيْتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ):

هذه نماذج قرآنية، وذكرنا أن الله تعالى لما قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (10)

(سورة الأنبياء)

فالعلماء لهم تفسيران في قوله تعالى: (كَيْتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ) بعض المفسرين قالوا (فِيهِ ذِكْرُكُمْ) أي فيه علو مكانتكم وعلو شأنكم، فمن يذكر أبا بكر الصديق فيترضى عنه إلا لأن القرآن الكريم رفعه، ومن يذكر أبا جهل فيلعنه إلا لأن القرآن الكريم قد خفض شأنه، فالقرآن يرفع الله به أقواماً، ويخفض به آخرين، فمن آمن به علا ذكره إلى يوم القيامة، ومن أعرض عنه نزل ذكره إلى يوم القيامة.

أين كان بلال الحبشي رضي الله عنه وأرضاه وهو عبد حبشي لولا أن القرآن وإيمانه بالقرآن وإيمانه بمحمد وبالإسلام رفع ذكره، فجميعنا اليوم نقول: سيدنا بلال رضي الله عنه.

صهيب الرومي وغيره، هذا فيه ذكركم أي فيه علو شأنكم، فنحن أمة الإسلام ما إن تمسكنا بكتاب الله تعالى رفع الله ذكرنا وما إن أعرضنا عنه خفض الله ذكرنا بين الأمم وأصبحنا أمة كأي أمة من الأمم لا شأن لها عند الله.



القرآن الكريم يذكرنا في صفحاته

وقال بعض المفسرين: (فِيهِ ذِكْرُكُمْ)؛ أي إن القرآن الكريم يذكرنا في صفحاته، وهذا المعنى الذي انطلقنا منه، القرآن الكريم يذكرنا في صفحاته فيذكر الخاسرين، وقد يقرأ القرآن إنسان فيجد نفسه خاسراً، فالقرآن ذكره، وربما يذكر المتقين فيقرأ القرآن مُتَّبِعًا لله فيجد ذكره في كتاب الله، لما يقول تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ مَا يَهْتَجُونَ (17)

(سورة الذاريات)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ بِبَيْعَاءٍ مَّرْضَاتٍ لِّلَّهِ ۚ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (208)

(سورة البقرة)

هذا نموذج صالح، النماذج السابقة التي ذكرناها نماذج سيئة من الناس: مفسد، ومشارك ومنافق، أما هذا النموذج فهو نموذج إنسان باع نفسه لله، ولسان حاله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162)

(سورة الأنعام)

ولسان حاله :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156)

(سورة البقرة)

فنحن مُلْكُ لله، ولسنا ملكاً لأنفسنا، فيفعل بنا ما شاء جل جلاله وترضى بقضائه وقدره فقد بعنا أنفسنا لله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّ لِلَّهِ شُكْرِي مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّهُمْ لَخَبَّةٌ يُّعْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَسُبْحٰنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (111)

(سورة التوبة)



البيع فيه طرفان ثمن وسلعة

أيها الكرام بادئ ذي بدء، لما قال الله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ بِبَيْعَاءٍ مَّرْضَاتٍ لِّلَّهِ ۚ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ) (سورة البقرة) فبمعنى يَشْرِي نَفْسَهُ بِبَيْعَاءٍ مَّرْضَاتٍ لِّلَّهِ ۚ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ، أي يبيع نفسه بمشقة مرضاة لله، وهذا من جماليات اللغة العربية، ألفاظ فيها تضاد، تأتي بالمعنيين معاً، طبعاً ممكن أن تُؤخذ في الآتي هنا **وباع**: قدم السلعة وأخذ الثمن، باع واشترى، أما **يشري** فتأتي بمعنى باع، وتأتي بمعنى اشترى معاً، هذا من جماليات اللغة العربية، ألفاظ فيها تضاد، تأتي بالمعنيين معاً، طبعاً ممكن أن تُؤخذ في الآتي هنا على المعنيين، سأتي إلى ذكر ذلك، لكن لما ذكر الله قضية الشراء، الشراء والبيع شيء، والهبة شيء، **الهبة**: هي أن تعطي شيئاً بلا ثمن، بلا مقابل، هذا اسمه هبة، فتقول لي: أنا وهبتك هذا الهاتف، إذا أنت لا تريد ثمنه، هبة، **والبيع**: تقول أعطيتك أو بعثت هذا الهاتف بمئة، فالبيع فيه طرفان ثمن وسلعة، الهبة طرف واحد والعبرة - بالمناسبة في الفقه هذا الأمر العبرة في العقود للمعاني لا للألفاظ والمباني، فمثلاً لو قال إنسان لآخر: وهبتك هذا الهاتف بمئة ليرة، فهذا بيع ولو قال له بعثت هذا الهاتف بلا ثمن فهذه هبة- **فالعبرة للمعاني لا للألفاظ والمباني**، أحياناً أهل الشام تأدياً مع كتاب الله يقول: وهبتك المصحف بمئتي ليرة حتى لا يقول بعثت، في حقيقته العقد عقد بيع ولكن تأدياً يقول له: وهبتك المصحف بكذا فهو بيع لأن فيه مقابلاً، على كل هذه على الهامش.



الإنسان مفطور على أن لا يقدم شيئاً بلا مقابل

فلما قال تعالى: **(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي)** إذاً هناك عقد، هناك بيع أولاً يوجد عقد ثانياً يوجد بيع، لماذا؟ لأن الإنسان أيها الكرام مفطور في داخل نفسه أنه لا يقدم شيئاً بلا مقابل، أبداً، سيخطر في بالك فوراً ماذا يتكلم الشيخ؟ والصدقات التي نقدمها؟ لا ليست بلا مقابل تنتظر الأجر عند الله، فقط، المؤمن عندما يقدم شيئاً لله لا يعني أنه يقدمه بلا مقابل، هو يقدمه بلا مقابل دنيوي، لكنه يطمع في المقابل الأعظم الآخروي، وإلا ما كان قدّمه، هذه فطرة الإنسان، انظروا إلى قوله تعالى في سورة الإنسان، قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّمَا تُطْعَمُونَ لُؤْجِهِ لَلَّهِ لَا تُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (9)

(سورة الإنسان)

لا نريد من البشر جزاءً، يعني أعطيك فتعطيني، ولا كلمة شكر، لا أريد أن تقول لي: شكراً، لا أريد جزاءً ولا شكوراً، قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا تَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (10) فَوَقْنَاهُم لَلَّهُ شَرٌّ ذَلِكَ لِيَتُومَ وَلِقْنَهُمْ نُصْرَةٌ وَسُرُورًا (11) وَجَزَّيْنَهُمَا صَبْرًا وَجَنَّةً وَخَيْرًا (12)

(سورة الإنسان)

إلى أن قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (22)

(سورة الإنسان)

هم ما طلبوا الجزاء في الدنيا ولا الشكر في الدنيا فأعطاهم الله الجزاء في الآخرة وشكر لهم سعيهم، إذاً هم لما قدموا قالوا: **(إِنَّمَا تُطْعَمُونَ لُؤْجِهِ لَلَّهِ لَا تُرِيدُ مِنْكُمْ)** ليس أننا لا نريد جزاءً، **(لَا تُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا)** نريد جزاءً وشكوراً من الله فجاءت نهاية الآيات **(إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا)**.

فإذاً الإنسان بشكل طبيعي لا يقدم شيئاً إلا بأخذ مقابلاً ولكن المؤمن لما يقدم شيئاً لله يعني أنه ينتظر موعود الله فهو أعقل العقلاء لأن عطاء البشر قليل ومنقطع، وعطاء الله كثير وغير منقطع، فإذا قال لك إنسان: تأخذ الآن مئة أم عدداً ألف؟ تقول له عدداً ألف، فإذا قال لك الآن مئة أم عدداً مليون؟ والله أنتظر سنة وأخذ المليون، الإنسان دائماً يريد الأكثر الذي يدوم معه، فلما ربنا عز وجل يشجعه إن هذا عطاؤنا، عطاء الله مختلف عن عطاء البشر:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِلَّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (6)

(سورة النين)



ترك التمن لله

يعني غير منقطع، عطاء غير مجذوذ أي غير منقطع، فإذا لا يوجد إنسان يقدم شيئاً بلا مقابل، نقدم لله يعني نريد عطاء من الله هذه حقيقة واقعة، فرينا عز وجل يعاملنا بهذا الأسلوب يقول (إِنَّ لِلَّهِ شَتْرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ) اشترى يعني هناك ثمن (يَأْتِيَهُمْ لِحَنَّةً) وهنا: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي نَفْسَهُ) معناها يأخذ ثمناً، لكنه ترك التمن لله، ذكرت لكم مرة أن مدرس لغة عربية مثلي أنا الفقير، الملك طلبه ليدرّس له ابنه، هذا يوم المنى، لكن الملك لم يعطه الأجرة، درّس أول درس، ثاني درس، ثالث درس، رابع درس، عاشر درس، ما أخذ شيئاً، فانهج، فطلب من الذي يستقبله (الحاجب) قال له: أين الحساب؟ أنا درّست عشر دروس، فدخل الحاجب وقال للملك المدرّس يريد حسابه، فقال له: أعطه ما يريد، فقال المدرس أريد على الدرس 1000 دينار، قال له: حاضر أعطه 10000 دينار، لكن الملك كان ينوي بعد انتهاء العام الدراسي أن يقدّم له بيتاً مقابل هذه الدروس، عطاء الملك أكبر من عطاء الناس، لكنه استعجل فهو أحمق.

فالمؤمن عندما يقدّم شيئاً لله لا يعني أنه يقدم بلا ثمن، مجاناً، لكنه ينتظر الموعود الأكبر، لذلك (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي نَفْسَهُ بِبَيْعَاءٍ مَّرْضَاتٍ لِلَّهِ).

تفصيل في معنى (مَن يَشْتَرِي):

الآن سنتكلم على يشري: يشري كما قلنا يبيع أو يشتري، أما يبيع فواضحة، قدّم نفسه وأخذ الجنة، قدّم نفسه لله، يارب أنا ملك لك، أنا حياتي لله، سأنقذ الزكاة سأصلي لله سأطعم لله سأحج لله سأربي أولادي على منهج الله سأجتنب المعاصي لله، يعني يبيع نفسه لله وبالمقابل يوجد جنة، هذا واضح.



يشترى نفسه أي يخلصها من الشهوات ومن ما لا ترضي الله

إذا قلنا يشري بمعنى يشتري: هنا يأتي سبب نزول الآية، قيل كما في التفاسير أنها نزلت في صهيبي الرومي، صهيبي من الروم وليس من العرب، وصهيبي لما كان في مكة والنبى صلى الله عليه وسلم هاجر حبسه أهل مكة، فأراد أن يلحق بالنبى صلى الله عليه وسلم، فقالوا له: أين تلحق؟ مالك ثمرته عندنا، جئتنا صعلوكاً فقيراً لا مال لك، وكان لك المال عندنا فلن ندعك، فقال: أرايتم إن أعطيتكم كل مالي أكنتم تخلون سبيلي؟ قالوا: نعم، عرض جيد، قال: خذوا مالي واتركوني، فلما وصل إلى المدينة قال له أبو بكر وعمر وفي رواية رسول الله صلى الله عليه وسلم: ربح البيع أبا يحيى، ربح البيع، فهو هنا ما الذي اشتراه؟ نفسه، قدم ماله واشترى نفسه (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي نَفْسَهُ) إما أنه يشتري نفسه: أي يخلصها من الشهوات والأماكن التي لا ترضي الله، ويهرب بها إلى الله، أو أنه يبيعها لله، فلذلك قال: (يَشْتَرِي) انظروا إلى اللفظ القرآني (يَشْتَرِي) هو اللفظ الذي يحمل البيع والشراء معاً، فهذه نفسك التي بين جنبيك إما أن تشتريها بمالك من أجل أن تهرب بدينك، وهذا اليوم موجود، وبشبهه: ربح البيع أبا يحيى، يقول لك: والله أنا كنت في هذا المكان وضعي جيد جداً، ولكن يا أخي هذه التجارة محرمة فتركت لشريك كل شيء، وقلت له: أنا أريد أخذ رأس مالي، وأن أنجو بنفسي، ولا أريد الاستمرار في هذه التجارة، اشترى نفسه وخلصها، والمعنى الثاني: باع نفسه لله بمعنى أنه جعل حياته ملكاً لربه فالتزم منهج الله تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي نَفْسَهُ بِبَيْعَاءٍ مَّرْضَاتٍ لِلَّهِ) يعني يبتغي بذلك رضوان الله تعالى، كل الناس، كل الناس ولا أستثني أحداً، إذا عمل يعمل لجهة، قلنا أولاً يعمل يريد شيئاً، وثانياً: يعمل لجهة معينة، يقول له: لماذا تاجرت هذه التجارة رغم أن فيها رشوة محرمة وكذا يقول لك: من أجل أولادي، رأينا الأولاد الذين ما ترك لهم أباً وهم شيئاً فأردت أن أترك لهم شيئاً فهو يعمل ابتغاء أولاده، والآخر يقول لك: والله زوجتي صعبة، وإن لم أؤمن لها حاجاتها تطلب المخالعة وتركني وحيداً وليس لدي الإمكانيّة للزواج مرة ثانية في العمر فألبي لها طلباتها فيعمل ابتغاء مرضاة زوجته، والثالث: يقول لك شريك صعب، وإذا منعت من هذه التجارة لن يستمر في شركتي، وهذه السيارة المسرعة إن سألتها لماذا أنت مسرعة بهذا الشكل؟ يقول لك ابتغاء لفت الأنظار، وازعاج الناس.



لا يوجد عمل بلا قصد

فالإِنسان عندما يعمل عملاً له من ورائه قصد، لا يوجد عمل بلا قصد، حتى السارق له قصد، وأيضاً هذه في العمق اسمحوا لي بها، لا يوجد تصرف يتصرفه الإنسان إلا من خلال تصوّر خاطئ عنده أو تصوّر صحيح، يعني السارق عندما ذهب ليسرق كان عنده تصوّر واضح أنه يحصل أكبر كمية ممكنة من المال بأقل جهد ممكن، ولكن لم يكن عنده تصوّر أنه من الممكن أن يُلقى به في السجن، ولا تصوّر أن ربنا سيلقي به في النار، الذي لم يسرق عنده تصوّر آخر صحيح، أن هذا المال الحرام لا يدوم في الدنيا، وسأنفقه على صحيّ مثلاً والعباد بالله، ويوم القيامة نار محرقة، فما أخذ ما ليس له، السلوكات كلها تنبع عن تصورات، لذلك أهم شيء في الدين الإيمان والعقيدة، ولو لم تكن السلوكات تنبع عن تصورات لكننا قلنا للناس اعتقدوا ما شئتم، لكن كل سلوك وراءه تصوّر، يعني: لو أن إنساناً حضر درساً عند شيخ بعباراته أو بطريقة خطابه أوهمه أن الله تعالى أجبر عباده على المعصية، يوجد فرقة اسمها الجبرية، أوهمه أن الله تعالى أجبر عباده على المعصية، قال له: ليس بيدنا الأفعال كلها خلق الله، طبعاً الأفعال كلها خلق الله هذا أكيد، وتابع الحديث أنت حتى معصيتك ليست بيدك، أنت لا تستطيع، أوهمه أن المعصية جبرية، الله أجبره عليها، الإنسان غير مخير، هذا الإنسان سيتصرف تصرفات سيئة جداً وسيتمادى في المعاصي، وإذا قلت له: لماذا تعصي الله عز وجل؟ سيقول لك: أنا لا علاقة لي يا أخي، طاسات معدودة بأماكن معدودة، كله من عمل الله، لأنه أخذ عقيدة خاطئة، وإذا الشيخ بطريقة خاطئة أوهم المتابعين له أن أفعال ما شئتم والنيبي صلى الله عليه وسلم يشفع لك يوم القيامة، تراه غارقاً في المعاصي حتى الصلاة لا يصلها، يقول لك: نحن أمة سيدنا محمد المرحومة والنيبي يشفع لنا، شفاعته النبي صلى الله عليه وسلم حق ولكنها لا ينبغي أن تكون نكأة ينكئ عليها المذنبون، لأن النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة يرى رجالاً يُدادون عن الحوض، يقول: أمتي أمتي يُقال له: لا تدري ما أحدثوا بعدك فيقول: سحقاً سحقاً.

{ إني فرطكم على الحوض من مر علي شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً، ليردن علي أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم،

فأقول: إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقاً، سحقاً، لمن غير بعدي {

(رواه البخاري ومسلم عن سهل بن سعد)

فإذا ما كل إنسان له شفاعته عند الله، فإذا القصد بالموضوع أن كل السلوكات التي يقوم بها الإنسان تنبع عن تصورات سابقة ولها قصد، يقصد بها شيئاً، فالله تعالى هنا قال: **{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ لِمَا بَاعَ نَفْسَهُ لَهُ؟ قَالَ: [يُبْعَاةَ مَرْصَاتٍ لِلَّهِ] قصده هو الله، إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي.**

الآخرون لهم قصد آخر، يكون قصده إرضاء الأقوياء، إرضاء الأثرياء، يكون قصده تحصيل أكبر ثروة، منافسة الآخرين في ثروتهم، ممكن، له قصد، أما المؤمن فقصدته وأعلى قصده هو الله تعالى.

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ [يُبْعَاةَ مَرْصَاتٍ لِلَّهِ] وَ[اللَّهُ رُءُوفٌ] بِ[الْعَبَادِ] هنا ما معنى [وَاللَّهُ رُءُوفٌ] بِ[الْعَبَادِ] لماذا جاء هنا هذا التذييل [وَاللَّهُ رُءُوفٌ] بِ[الْعَبَادِ] لأن الله تعالى لا يحمل إنساناً فوق طاقته، يعني صهيب الرومي باع نفسه لله، ترك كل ماله، نحن الآن مجموعة، من مئاً وقع في موقف اضطرر أن يتخلى عن كل ماله لينجو بنفسه؟ ولا أحد، سيدنا إبراهيم طلب منه أن يذبح ابنه، نبي:

وأشد الناس بلاء الأنبياء، من منا تعرض في حياته لامتحان أن يذبح ابنه؟ والله لا يستطيعها إنسان، ماشطة بنت فرعون تعرضت لامتحان قاس جداً، النبي صلى الله عليه وسلم شم رائحتها رائحة مسك في الإسراء والمعراج لم يشم مثلها قط، قال رائحة من هذه؟ قال رائحة ماشطة بنت فرعون، قتل أولادها أمامها وهي تقول ربي وربك الله.

{ مَرَزْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي بَرَانِحَةٍ طَيِّبَةٍ، فَعُلْتُ: مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ يَا جَبْرِيلُ؟! قَالَ: هَذِهِ مَاشِطَةُ بِنْتِ فِرْعَوْنَ، كَانَتْ تُمَسِّطُهَا،

فَوَقَعَ الْمُشْطُ مِنْ يَدَيْهَا، قَالَتْ: بِسْمِ اللَّهِ، قَالَتْ ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: أَبِي؟ قَالَتْ: رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكَ، قَالَتْ: أَقُولُ لَهُ إِذْنًا! قَالَتْ: قَوْلِي لَهُ، قَالَ

لَهَا: أَوْلِكَ رَبُّ عَيْتِي؟ قَالَتْ: رَبِّي وَرَبُّكَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، قَالَ: فَأَحْمَى لَهَا بَقَرَةً مِنْ نُحَاسٍ، فَقَالَتْ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، قَالَ: وَمَا حَاجَتُكَ؟ قَالَتْ:

أَنْ تَجَمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَدَيِّ، قَالَ: ذَلِكَ لِكِ عَلَيْنَا، لَمَّا لِكِ عَلَيْنَا مِنَ الْحَقِّ، فَأَلْقَى وَوَدَّهَا فِي الْبَقَرَةِ وَاحِدًا وَاحِدًا، فَكَانَ آخِرَهُمْ صَبِيًّا، فَقَالَ: يَا

أُمَّةُ! اضْئِرِّي، فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ. }

(أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عباس)



نُنزِّلُ الله تعالى من الصبر على قدر البلاء

من اضطر أن يقع بهذا الابتلاء (وَاللَّهُ زَعُوفٌ بِالْعِيَادِ) لا يمكن أن يحملك الله عز وجل إلا ما تطيق، ونُنزِّلُ الله تعالى من الصبر على قدر البلاء، هذه الآية كما قلنا نزلت في صهيب وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في خبيب بن عدي، وقد تعددت أسباب النزول يعني تأتي الآية فتنسب لهذا السبب أو لهذا، نزلت في خبيب بن عدي في غزوة الرجيع لما بعث مشركو قريش للنبي صلى الله عليه وسلم أنهم أسلموا ويريدون من يعلمهم القرآن والإسلام، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم بشر لا يعلم الغيب إلا أن يُعلمه الله، أرسل لهم تسعة رجال معهم زيد بن الدثنة، وخبيب بن عدي، وعلى رأسهم عاصم بن ثابت ليُعلموهم، فلما كانوا في الرجيع بين مكة والمدينة جلسوا فآكلوا التمر وألقوا بالنوى، نوى المدينة، تمر المدينة فلما مرت عجوز وجدت النوى فأخبرت قريش بأنه قد مر ركب من قوم محمد من هنا، فتبعوا آثارهم فوصلوا إليهم فقتلوا منهم من قتلوا، وأسروا من أسروا، فكان ممن أسر خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة، فخبيب أهدوا له خشية الصلب في مكة وجاؤوا به ليصلبوه وقالوا له: ماذا تريد قبل أن تلقى الله؟ قال لو شئتم أن تتركوني أن أركع ركعتين فافعلوا فتركوه فركع فلما قضى الركعتين قال: والله لولا أنني خشيت أن تقولوا أنه طوّل في الصلاة جزعاً من الموت لطوّلت، ما أراد أن ينالوا منه هذا الأمر، وقُتل خبيب بن عدي وقبل استشهاده طلب موسياً ليستجد به ليحلق به لأنه أسر لفترة قبل أن يُعدم، فجاء طفل صغير فجلس في حضنه والموس في يده، فأم الطفل رآته فركضت مسرعة تصرخ بأعلى صوتها، أسير، وصار طفلاً بين يديه والموس بيده فقال لها: أخشيت أن أقتله؟ نحن قوم لا نغدر، نحن ما تعلمنا الغدر، تقول هذه المرأة: والله ما رأيت أسيراً أجمل من خبيب، كنت أراه يأكل قِطفاً من العنب وما حوله شيء من العنب، ولولا أن الله يطعمه لما أكل، هذا خبيب، فلما قُتل خبيب في الله أنشد قبل أن يموت:

شَلُّوْ: أي عضوٍ، ودعا على قريش دعا عليهم ثم قال: اللهم أقرئ نبيك مني السلام وبلغه الغداة ما يُصنع بنا، فكان النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة فقال: وعليك السلام يا خبيب - دون جهاز خليوي، لا يوجد أيقون- وعليك السلام يا خبيب، قتلته قريش.

{ بعث النبي ﷺ سرية عيناً، وأمر عليهم عاصم بن ثابت، وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب، فانطلقوا حتى كانوا بين عسفان ومكة ذكروا لحبي من هذيل يُقال لهم: بنو لحيان، فتبعوهم بقريبٍ من مائة رامٍ، واقتصوا آثارهم، حتى أتوا منزلاً نزلوه، فوجدوا فيه نوى تمرٍ تزودوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب، فتبعوا آثارهم، حتى لحقوهم، فلما انتهى عاصم وأصحابه لجئوا إلى فدقد، وجاء القوم، فأحاطوا بهم، فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألا نقتل منكم رجلاً؟ فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصماً في سبعة نفرٍ بالنبل، وبقي خبيب، وزيد، ورجلٌ آخر، فأعطوهم العهد والميثاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم، فربطوهم بها. فقال الرجل الثالث -أي المسلم الذي كان معهما-: هذا أول الغدر، فأبى أن يصحبهم، فجرّوه على أن يصحبهم، فلم يفعل فقتلوه. وانطلقوا بـ "خبيب وزيد" حتى باعوهما بـ "مكة"، فاشترى خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو الذي قتل الحارث يوم بدر، فمكث عندهم أسيراً، حتى إذا أجمعوا قتله، استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستجد بها، فأعارتها، قال: فغفلت عن صبي لها فدرج إليه حتى أتاه، فوضعه على فخذه، فلما رآته فزعث منه وفي يده الموسيقى، فقال: أخشيت أن أقتله، ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله؟ وكانت تقول: ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، لقد رأيتته يأكل من قطف عنب وما بـ "مكة" يومئذٍ ثمرة، وإنه لموثقٌ في الحديد، وما كان إلا رزقٌ رزقه الله. فخرجوا به إلى الحرم ليقتلوه، فقال: دعوني أصلي ركعتين، ثم انصرف إليهم، فقال: "لولا أن تروا أن ما بي جزعٌ من الموت لذدت". فكان أول من سن الركعتين عند القتل هو، ثم قال: "اللهم أحصهم عدداً". }

{ ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله، وبعثت قريشٌ إلى عاصم ليأتوا بشيءٍ من جسده يعرفونه، وكان عاصم قد قتل عظيماً من عظمائهم يوم

بدر، فبعث الله عليه مثل الظلة من الدبر، فحمته من رسلهم، فلم يقدروا منه على شيء. {
صحیح البخاری عن أبي هريرة

{ الأَزْوَاجُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا ائْتَلَفَ. }

(صحیح مسلم عن أبي هريرة)

اليوم ممكن إنسان يطلب بهذه اللحظة فرصاً، يتصل بالهاتف ويقول سيقتلونني، لم تعد معجزة، اليوم نحن أقدر على تصديق المعجزات من أي وقت مضى، اليوم ليس بين مكة والمدينة، اليوم تخبره بما يحدث معك باللحظة بالصوت والصورة وهو بالقطب الشمالي، تنقل له نقلاً مباشراً ما الذي يحدث، فالخالق العظيم الذي هيا لنا أسباباً لنصل إلى هذه المرحلة هو أقدر جل جلاله على صنع معجزة في وقت لا توجد فيه الأسباب ولكن يوجد مسبب الأسباب جل جلاله، فقيل نزلت في حبيب فحبيب تعرّض لابتناء، فالله تعالى ذبّل الآية ب (وَاللَّهُ رَءُوفٌ) يعني ليس كل إنسان سيتعرض لما تعرض له حبيب.



يُبتلى الرجل على قدر دينه

يُبتلى الرجل على قدر دينه، ونحن دائماً نقول يارب نحن مؤمنون بك، لكن نسأل الله أن تكون امتحاناتنا خفيفة، لا نتحمل الكثير، لأن الإنسان مطلوب منه أن يطلب من الله العافية وليس البلاء، النبي صلى الله عليه وسلم وهو سيد ولد آدم وحبيب الحق صلى الله عليه وسلم لما ضرب في الطائف حتى أدميت قدمه ولجأ إلى بستان ودعا الله تعالى، قال في نهاية الدعاء:

{ إن لم تكن غضباً عليّ فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي }

(أخرجه الطبراني)

يعني إن كان ما حصل معي في الطائف تعبيراً عن غضبك علي فهذه مصيبة، أما إن كان ابتلاء تريد أن ترفع به الدرجات فلا أبالي، لأن الدنيا زائلة، قال: (غير أن عافيتك هي أوسع لي) فأدب المؤمن مع الله يسأل الله العافية، لكن يوطن نفسه أن الدنيا فيها ابتلاءات، فيوطن نفسه أن إذا ابتلي بالرخاء شكر وإذا ابتلي بالشر صبر:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
كُلُّ نَفْسٍ دَائِقَةُ الْمَوْتِ وَتَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (35)

(سورة الأنبياء)

فلما ذبّل الله تعالى الآية بقوله (وَاللَّهُ رَءُوفٌ) يعني ليس كل إنسان سيتعرض لما تعرض له حبيب. كأنه بطمنئك أن رأفته جل جلاله -هو من أسمائه الرؤوف- تقتضي أنه جل جلاله يعلم السر وأخفى فلا يحملك ما لا تطيق وإنما امتحانات على قدرك وقدر زمانك وطروفك ووضعك فهو أعلم تعالى بعباده وبنفوسهم من كل البشر.

هذا نموذج (مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ بِبَيْعَاءٍ مَرْصَاتٍ لِلَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ).

والحمد لله رب العالمين.

نور الدين الاسلامي